

## الفصل الرابع

### موقف أهل السنة بالأندلس من الفرق الإسلامية

- المبحث الأول : موقف أهل السنة من الشيعة وطقوسهم .
- المبحث الثاني : موقف أهل السنة من الخوارج .
- المبحث الثالث : موقف أهل السنة من المعتزلة .
- المبحث الرابع : موقف أهل السنة من الأشعرية

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

obeyikan.com



وهكذا نرى الشاعر الفقيه يحض الأمير الأموي على الاحتفال بهذا اليوم ناظماً بذلك الحديث الذي يستند إليه أهل السنة في هذه المسألة ، ونصه : " من وسع على نفسه وأهله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته " (1).

لم يتوقف الاحتفال بيوم عاشوراء بين أهل السنة حكاما ومحكومين لا سيما إذا علمنا أن رأساً من رؤوس المجتهدين بالأندلس في القرن الخامس الهجري دعا إلى ذلك وروى الحديث في إحدى مصنفاته الحافلة بالروايات والأحكام فقال : أخبرنا أحمد بن قاسم ومحمد بن إبراهيم ومحمد بن حكم قالوا: حدثنا محمد بن معاوية حدثنا الفضل بن الحباب حدثنا هشام بن عبد الملك الطيالسي حدثني شعبة عن أبي الزبير عن جابر -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: "من وسع على نفسه وأهله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته"، قال جابر: جربناه فوجدناه كذلك، وقال أبو الزبير مثله، وقال شعبة مثله. (2).

بل إن ابن عبد البر النمري الأندلسي قد ذهب إلى أبعد من ذلك عندما أجاز للأندلسيين اللعب في يوم عاشوراء بقوله عن حديث لعب الحبشة في يوم عاشوراء : " رواه مالك في الموطأ 906 باب: النظر إلى اللعب نا أبو النضر عمن سمع عائشة تقول: سمعت أصوات ناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون يوم عاشوراء فقال رسول الله صلى الله عليه

---

1 الغارى : هدية الصغراء بتصحيح حديث توسعة يوم عاشوراء ، مكتبة القاهرة ، القاهرة ، ط2 ، 1427هـ/2006م ، ص9.

2 أنظر : الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلما الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والإختصار، تحقيق عبدالمعطي أمين قلعجي ، دار قتيبة دمشق - بيروت ، دار الوعى ، حلب - القاهرة ، 140/10.

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

وسلم: "أتحيين أن تري لعبيهم؟ قلت: نعم، فأرسل إليهم فجاؤوا، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بين البابين فوضع كفه على الباب ومد يده ووضعت يدي على يده وجعلوا يلعبون وأنا أنظر وجعل رسول الله يقول: حسبك مرتين أو ثلاثا، ثم قال: يا عائشة حسبك، فقلت: نعم فأشار إليهم فانصرفوا".

وفي عهد المرابطين ييز ابن العربي المالكي الإشبيلي (ت 543هـ/) ليؤكد على تواصل الاحتفال بيوم عاشوراء، ويربط بين ما ذكره ابن حبيب المالكي آنف الذكر وبين ما يقع في عصره، وما يدعو إليه بقوله: "أما النفقة في يوم عاشوراء والتوسعة فمخلوفة باتفاق وأنه يخلف الله بالدرهم عشرة أمثاله" إلى أن قال: وقد رأيت لابن حبيب قطعة أبيات نذكرها إن شاء الله:

لا تنس لا ينسك الرحمن عاشورا... واذكره لا زلت في الأحياء مذكورا  
قال الرسول صلاة الله تشمله... قولنا وجدنا عليه الحق والنورا  
أوسع بهالك في العاشور إن له... فضلا وجدناه في الآثار ماثورا  
من بات في ليلة العاشور ذا سعة... تكن معيشته في الحول مسرورا  
فارغب فديتك فيما فيه رغبنا... خير البرية مقبورا ومنشورا  
ثم قال: "وقد تكلمنا على فضله ومعانيه في "كتاب المواعظ"، وأشبعنا القول فيه في "الكتاب الكبير" فلتنظر هنالك، والحمد لله" (1).

1 أنظر: المسالك شرح موطأ مالك، تحقيق محمد بن الحسين السليمانى وعائشة بنت الحسين السليمانى، دار الغرب الإسلامى، 1428هـ/2007م، 4/205.

وكان الصالحون بالأندلس في عهد الموحدين يذبحون الذبائح ، ويعدون الطعام ، ويدعون الناس لتناوله احتفالاً بهذه الليلة (1) ، وكان للمعلمين نصيب من الطعام أو جعل يجعل لهم أقره فقهاء المالكية وأجازوه (2) ، وقد حث فقهاء المالكية الناس على الإنفاق على أهليهم والتوسعة عليهم في هذا اليوم ، ومنهم ابن القطان الفاسي الذي صنف رسالة بخصوص هذا الشأن أسماها ( فضل عاشوراء وما ورد في الإنفاق فيه على الأهل ) (3) . كان لها تأثير كبير في الأندلس والمغرب على السواء لا سيما إذا علمنا أنه تولى قضاء غرناطة وسبته وسجلها في عهد الموحدين ، وكان رئيساً لطلبة العلم بمراكش ، وقاضياً للقضاء ، ومعلوم أن أحكامه ومنها حكمه الخاص بالاحتفال بيوم عاشوراء أخذ شكلاً رسمياً حال توليه منصب القضاء ، وكان يجد طريقه بين الناس بسهولة ويسر . لا سيما وأن المجتمع الأندلس قد اعتاد على الاحتفال بذلك طيلة القرون المنصرمة قبل عصر الموحدين .

ونعرف من ابن الحاج المالكي ( ت 737هـ/1336م ) أن الأندلسيين في ظل بني الأحمر تزيدوا في الاحتفال بيوم عاشوراء حتى أحدثت النساء فيه استعمال الحناء ، ومن لم يفعلها منهن فكأنها ما قامت بحق عاشوراء ، كذلك كان الرجال والنساء يخرجون لزيارة القبور في هذا اليوم ، كما أنهم اختصوا يوم عاشوراء بذبح الدجاج وغيرها ، ومن لم يفعل ذلك فكأنه ما

---

(1) سعيد أبو زيد : الحياة الاجتماعية في الأندلس ، شركة الهدى للطباعة ، قويسنا ، 1996م ، ص 179 ؛ وانظر : عصمت دندش ، الأندلس في نهاية عصر المرابطين وبداية عهد الموحدين ، ص 267.

(2) الونشريسي ، المعيار ، 254/8.

(3) محمود مكي ، مقدمة نظم الجمان لابن القطان ، ص 17.

قام بحق ذلك اليوم، وكذا كانوا يقومون بطبخ الحبوب وغيرها . كما احتفلوا في هذا اليوم بإشعال البخور ، ومن لم يشتره منهن في ذلك اليوم ويتبخر به، فكأنه ارتكب أمرا عظيما (1).  
ونعرف من الشاعر ابن زمرك أن سلاطين غرناطة في عهد بنى الأحمر كانوا يحتفلون بيوم عاشوراء ، ويصلون العلماء والفقهاء والشعراء في هذا اليوم بجزييل النعم والعتاء ، ومن ثم نرى ابن زمرك يخلد ذلك في شعره شاكرا النعم التي وصلته من محمد الخامس في عاشوراء : بقوله:

مولاي يا ابن السابقين إلى العلا ... والرافعين لواءها المنشورا  
إن لو حظوا في المعلوات فإنهم ..... طلوعوا بأفاق العلاء بدورا  
أو فوخروا في المكرمات فإنهم ... نظموا بأسلاك الفخار شذورا  
أبناء أنصار النبي وصحبه ... في الذكر أصبح فخرهم مذكورا  
والمؤثرين، وربنا أثنى بها ... في الحشر خلد وصفهم مسطورا (2)  
فاضت علينا من نذاك غمائم ..... وتفجرت من راحتك بحورا  
من كف شفاف الضياء تخاله ..... لصفاء جوهره تجسد نورا  
نعم متنوعة تعدد وفرها ..... أعجزت عنها شكري الموفورا  
في موسم للدين قد جددته ..... وأقمت فينا عيده المشهورا  
أضعاف ما أهديتنا من منة ..... تهدي إليك ثوابها عاشورا

---

1 ابن الحاج : المدخل ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط 1 ، 1425 ، 1/248،249.  
2 يشير إلى الآية الكريمة التي نزلت في الأنصار " ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة " سورة الحشر آية 9.

وعلى الطريق بشائر محمودة.... ألقاك جذلانا بها مسرورا (1).

ومما سبق يتضح أن الأندلسيين حكومة وشعبا ظلوا على سنتهم فيما يخص يوم عاشوراء، ولم ينساقوا وراء الأفكار الشيعية الى عرفت طريقها إلى الأندلس، بل عمدوا على معارضة المتشيعين وأفكارهم.

بل إن المعارضة للأفكار الشيعية وصلت بأحد الأمويين ممن لهم ميل لأهل البيت أن ينظم أرجوزة عن الخلفاء أخرج فيها علياً بن أبي طالب من زمرة الخلفاء وجعل معاوية رابعهم ثم واصل ذكر الخلفاء إلى عبدالرحمن بن محمد ربما خوفاً من بطش حكام الأندلس السنة، وربما - ولو في الظاهر - نكاية في الشيعة وتأييداً لمخطط الدولة الأموية السنية في الوقوف في وجه المشروع الفاطمي الشيعي الذي كان يهدف إلى تحويل الأندلس من المذهب السني إلى الشيعي بناءً على أحقية أبناء علي في الخلافة. وقد لقي ابن عبدربه صاحب هذه الأرجوزة معارضة من رأس من رؤس السنة في عصره وهو غضب المنذر بن سعيد البلوطي الظاهري قاضي القضاة الذي سب ابن عبدربه وكتب في حاشية الكتاب الذي طالع فيه الأرجوزة:

أو ما على لا برحت ملعنا.... يا ابن الخبيثة عندكم بإمام.

رب الكساء وخيريل محمد... داني الولاة مقدم الإسلام (2)

استمرت الأندلس سنية النزعة طيلة العهد الأموي رغم تسرب بعض الأفكار الشيعية، ولم تسمح السلطة ولا الشعب بأي فكر يغيّر الفكر السني، ومن ثم فقد عبر

1المقرى: نفع الطيب، 7/176، 177.

2نقلا عن المقرى: نفع الطيب، 2/512/511؛ وانظر: عبدالباقي السيد: تاريخ أهل الظاهر، ص156.

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

المقدسي عن ذلك في القرن الرابع الهجري بقوله " إن الأندلسيين إذا عثروا على معتزلي أو شيعي فربما قتلوه(1)".

كان من أساليب الأمويين السنة في مواجهة الشيعة والمتشيعين -خاصة في بعض أوقات التوتر السياسي بينهم وبين الدول الشيعية ومنها الأدارسة في المغرب والفاطميين في المغرب ومصر- استقبال الأندلس للاجئين السياسيين المعارضين للحكومات الشيعية في المشرق والمغرب، والاتصال برجال المعارضة للحكم الشيعي في المغرب ومصر وإشعال الثورات، فضلاً عن الصلات التجارية والعلاقات السياسية مع الإمارات السنية في المغرب ومصر وحوض البحر المتوسط فضلاً عن تشجيع التأليف في الشؤون الأفريقية والشيعة وفي مقدمة من فعل ذلك من الخلفاء الأمويين الخليفة الحكم المستنصر (350هـ - 366هـ) الذي كلف الكاتب محمد بن يوسف القيرواني التاريخي الوراق بتأليف موسوعة في جغرافية إفريقية ومسالكها وشجع التأليف في أنساب الطالبين فضلاً عن ترجمة الكتب البربرية حول هذا الموضوع، وهو ما فصلنا القول عنه بالفصل الثالث من هذه الدراسة .

ضاعف الأندلسيون نشاطهم حين ظهرت الدولة الفاطمية في المغرب سنة 296هـ وتزايد اهتمام الخلافة الأموية في الأندلس بالشؤون الأفريقية فكان لحكومة قرطبة عيون

---

1 أنظر : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، علق عليه ووضع حواشيه محمد أمين الضناوي ، دار الكتب العلمية. بيروت 2002، ص190.

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

ووسطاء منبثون في جميع أنحاء المغرب (1) كذلك النشاط الثقافي الذي كان يمثله العلماء والفقهاء والشعراء الذين جندهم الأمويون للدفاع عن آرائهم السياسية والمذهبية وإذاعتها. ومن جملة الأفكار والشعارات الشيعية التي واجهها فقهاء المالكية التكبير خمس تكبيرات في صلاة الجنازة ، عملاً بقول ابن القاسم الذي عممت الفتوى بقوله في قرطبة ، ويفصل القرافي المالكي هذه المسألة بقوله : "... أنه عليه السلام نعى النجاشي للناس في اليوم الذي مات فيه ، وخرج بهم إلى المصلى فصف بهم وكبر أربع تكبيرات ، ولأنها كالركعات فلا يزيد على الأربع ، فلو زاد الإمام خامسة صحت الصلاة؛ لأنها مروية في غير هذا الحديث ومختلف فيها، ومع ذلك فروى ابن القاسم عنه: لا يتبع فيها؛ لأنها من شعار الشيعة " (2).

لم يتوقف دور أهل السنة على ما سبق بشأن مواجهة المشروع الشيعي بأفكاره ومبادئه . بل انبرى بعض الفقهاء الكبار لتعقب أصول فرق الشيعة وإبطالها بالأدلة والبراهين ، ومن هؤلاء ابن حزم الظاهري الذي واجه الباطنية في شدة وصرامة عندما أعلن في فتوى له أن القائل بأن في الإسلام شيئاً باطناً غير الأمور الظاهرة لكل الناس فهو كافر ويجب أن يقتل (3) . وفي فتوى أخرى يؤكد هذه المعارضة بقوله : " وكل ما فيه ( أى القرآن ) من خبر عن نبي من الأنبياء أو مسخ أو عذاب أو نعيم أو غير ذلك فهو حق على ظاهره لا رمز في

---

1 ابن سعيد : المغرب في حُلِّي المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف ، ط3 ، القاهرة ، 1978 ، 180/1 .

2 أنظر : الذخيرة ، 463/2 .

(3) أنظر: المحلى ، 376/5 .

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

شئ من ذلك" (1) ، وترجع هذه المعارضة إلى حماية أصلى الإسلام القرآن والسنة من التأويلات الفاسدة التى روج لها الباطنية على وجوه تؤدى إلى الإباحية وإبطال الشريعة كإباحتهم لأتباعهم نكاح بناتهم وأخواتهم وشرب الخمر وجميع الملذات ، وتأويلهم الملائكة على أتباعهم والشياطين على مخالفيهم ، وزعمهم أن معنى الصلاة موالاة إمامهم ، والحج زيارته وإدمان خدمته ، والصوم الإمساك عن إفشاء سر الإمام دون الإمساك عن الطعام ، والزنا إفشاء سرهم بغير عهد وميثاق ، وأن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها ، وأن اليقين فى قوله تعالى (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) [ سورة الحجر آية 99 ] هو معرفة التأويل ، ومن ثم قالوا من صار إلى تأويله الباطن فهو من الملائكة البررة ، ومن عمل بالظاهر فهو من الشياطين الكفرة (2) .

لقد فطن ابن حزم إلى هدف الباطنية من هذه التأويلات وهو الدعوة لدين المجوس والمذهب الدهرى الذى يقول بقديم العالم (3) ومن ثم فلم يتسامح معهم ولجأ إلى تكفير كل من يستخدم معان باطنية فى تأويل النص ، ويحمله ما لا يحتمله من خلال التفسير اللغوي . ولعل لجوء ابن حزم إلى الفتوى دون المناظرة مع الباطنية يرجع إلى عدم الالتقاء بين الظاهرية والباطنية فى أى أصل من الأصول .

(1) أنظر: علم الكلام على مذهب أهل السنة ، تحقيق أحمد حجازى السقا ، المكتب الثقافى للنشر والتوزيع ، القاهرة 1989م ، ص 39 .

(2) البغدادي : الفرق ، ص 250، 257 .

(3) نفسه ، ص 255، 256 .

أما بخصوص الكيسانية فقد سلك ابن حزم معهم مسلك المناظرة لبعض فقهاءها وكانوا كثيرين كابن نفق الليل المحدث بطليبة ، ومحمد بن عبدالله الكاتب الذى ناظره ابن حزم حول "هل الخضر مازال حيا" حيث أخبره الكاتب أنه جالس الخضر وكلمه مرارا هو وغيره كثير، فرد عليه ابن حزم قائلا : إن ذلك لا يقبله عقل ولا منطوق لقوله تعالى (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) [سورة الأحزاب آية 40] وقول الرسول صلى الله عليه وسلم (ليس بعدى نبي). فكيف يستجيز مسلم أن يثبت بعده عليه السلام نبيا فى الأرض ، باستثناء عيسى بن مريم الذى أخبر الرسول بأنه سينزل فى آخر الزمان ويقتل الدجال (1).

وتجدر الإشارة إلى أن كلام ابن حزم يحتمل أحد أمرين إما أن مناظره كان يعتقد بنبوة الخضر عليه السلام فجاء رده عليه هكذا ، وإما أنه هو الذى يعتقد نبوته ومن ثم أراد أن يخطئ قول مناظره بأن الخضر لم يموت بعد من خلال القرآن والسنة القاضيان بأن محمدا (ص) خاتم الأنبياء (2). وأيا ما كان الأمر فقد كان على ابن حزم أن يحتج بما هو أجلى مما ذكره وهو قوله تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) [سورة الأنبياء آية 34] فهذه الآية توضح أن كل من سبق النبى من الأنبياء أو غيرهم لم يخلدوا . بل كتب الموت على كل من كان قبله .

---

(1) أنظر : الفصل ، 3/114، 113 والآية رقم 40 من سورة الأحزاب ، والحديث رواه البخاري فى المغازى باب 78 .

(2) لمزيد من التفاصيل عن مسألة - هل الخضر نبي أم لا - أنظر ابن حجر ، الزهر النضر فى نبأ الخضر ، تحقيق مجدى السيد ، مكتبة الساعى ، الرياض ، ص 22-83 .

وإلى جانب المناظرة نرى ابن حزم يعمد إلى جمع مبادئهم ، والرد عليها في رسائل ضمنها كتابه الفصل - فيما بعد - لتكون في متناول طلبة العلم ، ومن ذلك انتقاده لقولهم بالرجعة ، حيث يقولون إن محمد بن علي بن أبي طالب وهو ابن الحنفية حتى بجبل رضوى بين مكة والمدينة ، عن يمينه أسد وعن يساره نمر تحذته الملائكة ، ويأتيه رزقه غدوا وعشيا ، ولم يموت ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ، وربط بين قولهم هذا وعقيدة اليهود قائلا : " فصار هؤلاء في سبيل اليهود القائلين بأن ملكي صديق بن عامر بن أرفخشذي بن سام بن نوح ، والعبد الذي وجه إبراهيم عليه السلام ليخطب ريقا بنت نتوال بن ناحور بن تارح على إسحاق ابنه عليه السلام ، وإلياس عليه السلام ، وفنحاس بن العازار بن هارون عليه السلام أحياء إلى اليوم " (1) وهو بقوله هذا يعد من أوائل مؤرخي الفرق الذين ربطوا بين عقيدة الشيعة واليهود ملفتا النظر إلى تأثير الأولى بالثانية .

كما عارض قولهم بتناسخ الأرواح ، حيث كانوا يأخذون البغل والحمار ويعذبونه على أنه روح أبي بكر وعمر، وكذا يفعلون بالعنز على أنه روح أم المؤمنين عائشة ، وانتقد قولهم بأن عليا لم يكن له سمي قبله ، فقد أثبت بطلان ذلك بأن هناك من تسمى باسمه قبله كثير مثل علي بن بكر بن وائل ، وأن قبيلتي الأزد وبجيلة سمت بعض أبنائهما باسم علي ، وكان عامر بن الطفيل يكنى بأبي علي ، وانتقد قولهم بفناء الجنة والنار، وعدم فناء الدنيا (2) والذي أبطله بقوله تعالى عن خلود المؤمنين في الجنة (خالدين فيها أبدا) [ سورة النساء آية

(1) أنظر الفصل، 3/113، 112،

(2) نفس المصدر، 3/116، 115،

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

57 [ وقوله (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) [ سورة هود آية 56 ] فضلا عن اتفاق الأمة على أنه لا فناء للجنة والنار(1) .

والملاحظ أن ابن حزم في مناظراته وانتقاده لأصول الكيسانية كان يلجأ إلى نصوص القرآن والسنة ولم يعتمد على التأويل أو العقل ، وذلك لأن طائفة منهم كانوا محدثين من أهل العناية وسعة الرواية ، ومن ثم استخدم معهم نفس أسلوبه الجدلي مع الفقهاء والمحدثين من أهل السنة(2)

وإلى جانب الكيسانية فقد عرفت الأندلس الشيعة الإمامية التي وجد لها بعض الأتباع وإن كانوا قلة ، وقد عارض ابن حزم هذه الفرقة وانتقد الكثير من أصولها ومنها القول بإجازة نكاح تسع نسوة ، وتحريم الكرنب لأنه نبت على دم الحسين ولم يكن قبل ذلك ، والادعاء بأن القرآن محرف إذ دخله ما ليس منه ، وحذف منه الكثير، وقد تشدد ابن حزم في حكمه على هذه الفرقة حتى أنه نسبهم إلى الكفر لتكذيبهم الرسول (ص) وصريح القرآن(3) وهذه الشدة في الفتوى توضح مدى حرصه على حماية أصول الإسلام - القرآن والسنة - من تحريف الغالين وانتحال المبطلين بالصاق أقوال فاسدة إليها ، خاصة وأن هذه الفرقة تقول بالقياس الذي يعتبره ابن حزم من أخطر الأضرار على التشريع الإسلامي 0

(1) نفس المصدر، 2/398، 397 .

(2) أنظر: الفصل، 3/114، 113 .

(3) أنظر: الفصل، 3/116، 115 .

ويتضح أثر ابن حزم جلياً بخصوص هذا الشأن في اهتمام الأندلسيين بمناظراته وانتقاداته لفرق الشيعة حتى أنهم حفظوها وسجلوها في كتب للرجوع إليها عند مناظرتهم بعض المتشيعين (1) .

وإذا كان المذهب المالكي هو المذهب الرسمي في المغرب والأندلس طيلة التاريخ الإسلامي باستثناء عصر الموحدين فلا بد من وقفة مع دور المالكية في مواجهة الشيعة في الأندلس ، وهو ما يتضح من خلال نشر الأندلسيين أقوال الإمام مالك بشأن الشيعة ومنها : ما ذكره أشهب بن عبد العزيز حيث قال : سئل مالك عن الرافضة ؟ فقال : " لا تكلمهم ولا ترو عنهم فإنهم يكذبون . " (2) .

وسئل مالك أيضاً عن أشرّ الطوائف ؟ فقال : " الروافض . " (3) .  
ونقل عن الإمام أحمد بن حنبل عن مالك قوله : " الذي يشتم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ليس له سهم . أو قال . : نصيب في الإسلام . " (4) .

وقال الإمام مالك عن سب الشيعة الروافض للصحابة : "إنما هؤلاء أقوام أرادوا القدح في النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يمكنهم ذلك ، فقدحوا في أصحابه ، حتى يقال : رجل سوء ولو كان رجلاً صالحاً لكان أصحابه صالحين " (5) .

(1) ابن حزم ، الفصل ، 3/114 ، 113 ؛ وأنظر : ابن بسام ، الذخيرة ، قسم 1 ج 1 ص 170 .

2 نقلًا عن ابن تيمية : منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية ، 1/59-60 .

3 المقري : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب 5/307 .

4 للخلال : السنة ، 1/389 رقم 779 .

5 نقلًا عن ابن تيمية : الصارم المسلول ، 580 .

هذه الأقوال التي رويت عن الإمام مالك بشأن الشيعة تمسك بها الأندلسيون ، ونشروها فيما بينهم ، ولم يحيدوا عنها في تعاملاتهم طيلة عصر الإمارة الأموية بالأندلس والخلافة ، وكذا عصر ملوك الطوائف وما تلى ذلك من عصور .

وفي عصر المرابطين نجد الفقيه والمؤرخ أبو بكر عبد الله المالكي صاحب رياض النفوس ( ت 494هـ ) ينفى عن الشيعة انتسابهم إلى الإسلام في ترجمة الإمام الممسي (1) حيث يقول : " رأى رضي الله عنه أن الخروج مع أبي يزيد الخارجي وقطع دولة بني عبيد فرض لازم ، لأن الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم اسم الإسلام ويورثون ويرثون ، وبنو عبيد ليسوا كذلك لأنهم مجوس زال عنهم اسم الإسلام فلا يتوارث معهم ولا ينسب إليهم (2) " ، وقوله هذا الذي ضمنه في كتابه وجد طريقه إلى الأندلس عن طريق الطرطوشي ، والقاضي عياض اليحصبي ، وابن الأبار البلنسي (3).

وفي ذات العصر يخرج علينا القاضي أبو بكر بن العربي المالكي المعافري : متقدماً المعتقد الشيعي ومبينا ضلاله بقوله : " ما رضيت النصراني واليهود في أصحاب موسى وعيسى ، ما رضيت الروافض في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، حين حكموا عليهم بأنهم قد اتفقوا على الكفر والباطل " (4).

---

1 هو أبو الفضل العباس بن عيسى الممسي ، كان فقيها زاهدا لم يكن في طبقتة أفقه منه ، سمع من موسى القطان والجلج وجماعة ، وأخذ عنه ابن أبي زيد و ابن مغيث وغيرها ، ألف كتابا منها : اختصار كتاب ابن المواز وتحريم الخمر ، قُتل رحمه الله سنة 333 . أنظر : القاضي عياض : ترتيب المدارك ، 5 / 297 .  
2 أنظر : رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ، 2 / 297 .  
3 أنظر : بشير البكوش : مقدمة تحقيق كتاب رياض النفوس للمالكي ، 1 / 27 .  
4 أنظر : العواصم من القواصم ، ص 192 .

وقال ابنُ العَرَبِيِّ المالكي مدافعا عن عائشة ومنتقدا الشيعة: تَعَلَّقَ الرَّافِضَةُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ - بِهَذِهِ الْآيَةِ ( وقرن في بيوتكن ) عَلَى أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِذْ قَالُوا: إِنَّهَا خَالَفَتْ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ خَرَجَتْ تَقُودُ الْجِيُوشَ، وَتُبَاشِرُ الْحُرُوبَ، وَتَقْتَحِمُ مَازِقَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ فِيمَا لَمْ يُفْرَضْ عَلَيْهَا وَلَا يُجُوزُ لَهَا. قَالُوا: وَلَقَدْ حُصِرَ عُثْمَانُ، فَلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ أَمَرَتْ بِرَوَاجِلِهَا فَقَرَّبَتْ لِتَخْرُجَ إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَ لَهَا مَرْوَانُ: أَقِيمِي هُنَا يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، وَرُدِّي هَؤُلَاءِ الرَّعَاعَ، فَإِنَّ الْإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ خَيْرٌ مِنْ حَجَّكَ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ قَالَ عَلَمًاؤُنَا رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ: إِنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا نَذَرَتْ عَنْهَا، نَذَرَتْ الْحَجَّ قَبْلَ الْفِتْنَةِ، فَلَمْ تَرَ التَّخَلُّفَ عَنْ نَذْرِهَا، وَلَوْ خَرَجَتْ فِي تِلْكَ النَّائِرَةِ لَكَانَ ذَلِكَ صَوَابًا لَهَا. وَأَمَّا خُرُوجُهَا إِلَى حَرْبِ الْجَمَلِ فَمَا خَرَجَتْ لِحَرْبٍ، وَلَكِنْ تَعَلَّقَ النَّاسُ بِهَا، وَشَكَّوْا إِلَيْهَا مَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ عَظِيمِ الْفِتْنَةِ وَتَهَارُجِ النَّاسِ، وَرَجَوْا بِرَكَّتِهَا، وَطَمَعُوا فِي الْإِسْتِحْيَاءِ مِنْهَا إِذَا وَقَفَتْ إِلَى الْخَلْقِ، وَظَنَّتْ هِيَ ذَلِكَ فَخَرَجَتْ مُقْتَدِيَةً بِاللَّهِ فِي قَوْلِهِ: " لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ " [النساء: 114]، وَقَوْلِهِ: " وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا " [الحجرات: 9] وَالْأَمْرُ بِالْإِصْلَاحِ مُخَاطَبٌ بِهِ جَمِيعُ النَّاسِ مِنْ ذَكَرَ وَأُنْثَى، حُرٌّ أَوْ عَبْدٌ فَلَمْ يُرِدِ اللَّهُ تَعَالَى بِسَابِقِ قَضَائِهِ وَنَافِذِ حُكْمِهِ أَنْ يَقَعَ إِصْلَاحٌ، وَلَكِنْ جَرَتْ مُطَاعِنَاتٌ وَجَرَاحَاتٌ حَتَّى كَادَ يَفْنَى الْفَرِيقَانِ، فَعَمَدَ بَعْضُهُمْ إِلَى الْجَمَلِ فَعَرَفَهُ، فَلَمَّا سَقَطَ الْجَمَلُ لِحَبْلِهِ أَذْرَكَ مُحَمَّدٌ بْنُ أَبِي بَكْرٍ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا، فَاحْتَمَلَهَا إِلَى الْبَصْرَةِ،

وَوَخَّرَجَتْ فِي ثَلَاثِينَ امْرَأَةً، فَرَهْنَنَّ عَيْيُّ بِهَا حَتَّى أَوْصَلُوهَا إِلَى الْمَدِينَةِ بَرَّةً تَقِيَّةً مُجْتَهِدَةً، مُصِيبَةً مُثَابَةً فِيمَا تَأَوَّلَتْ، مَا جُورَةَ فِيمَا فَعَلَتْ، إِذْ كُلُّ مُجْتَهِدٍ فِي الْأَحْكَامِ مُصِيبٌ. (1).

وفي ذات العصر نجد القاضي عياض اليحصبي يشن حملة شعواء على الشيعة - في غير موضع من كتابه ترتيب المدارك- ، وجدت صدى لها بالمغرب والأندلس على السواء فيقول مبينا ما فعله الفاطميون بأهل السنة : " كان أهل السنة بالقيروان أيام بني عبيد في حالة شديدة من الاهتضام والتستر كأنهم ذمة ، تجري عليهم في أكثر الأيام محن شديدة ، ولما أظهر بنو عبيد أمرهم ونصبوا حسينا الأعمى السباب لعنه الله في الأسواق للسب بأسجاع لُقْنَهَا يُتَوَصَّلُ مِنْهَا إِلَى سَبِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَلْفَاظٍ حَفْظُهَا ، كَقَوْلِهِ . لعنه الله . : العنوا الغار وما حوى والكساء وما حوى وغير ذلك ، وعُلِّقَتْ رِؤُوسُ الْحَمْرِ وَالْكَبَاشِ عَلَى أَبْوَابِ الْحَوَانِيتِ عَلَيْهَا قَرَاطِيسٌ مَعْلُوقَةٌ مَكْتُوبَةٌ فِيهَا أَسْمَاءُ الصَّحَابَةِ ، اشْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَى أَهْلِ السَّنَةِ فَمَنْ تَكَلَّمَ أَوْ تَحَرَّكَ قُتِلَ أَوْ مُثِّلَ بِهِ ، وَذَلِكَ فِي أَيَّامِ الثَّلَاثِ مِنْ بَنِي عَبِيدٍ وَهُوَ إِسْمَاعِيلُ الْمَلْقَبُ بِالْمَنْصُورِ سَنَةَ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثِمِئَةَ (2) .

وقال أيضا : " وضرب النفطي قاضي الشيعة محمدا هذا في جميع القيروان عريانا وشفع ففاه حتى سال الدم من رأسه ، وبرَّح عليه في الأسواق ، وأطافه عريانا على حمار ، إذ رُفِعَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَفْتِي بِمَذْهَبِ مَالِكٍ وَيَطْعَنُ عَلَى السُّلْطَانِ ، ثُمَّ حُبِسَ (3) " .

1 نقلا عن القرطبي : التفسير ، 14/ 181.

2 أنظر : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، 5/ 303

3 أنظر : ترتيب المدارك ، 5/ 337.

ونقل القاضي عياض عن بعض العلماء قوله: "أجمع علماء القيروان أبو محمد، وأبو الحسن القاسمي، وأبو القاسم ابن شبلون، وأبو علي بن خلدون، وأبو بكر الطنبي، وأبو بكر بن عذرة: أن حال بني عبيد، حال المرتدين والزنادقة، بما أظهروه من خلاف الشريعة، فلا يورثون بالإجماع، وحال الزنادقة بما أخفوه من التعطيل. فيقتلون بالزندقة، قالوا: ولا يقدر أحد بالإكراه على الدخول في مذهبهم، بخلاف سائر أنواع الكفر. لأنه أقام بعد علمه بكفرهم. (1)".

وأفتى القاضي عياض المالكي بتكفير غلاة الشيعة حيث قال: "وكذلك نقطع بتكفير غلاة الرافضة في قولهم: "إن الأئمة أفضل من الأنبياء." (2).

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأقوال والفتاوى التي ذكرها القاضي عياض قد اشتهر أمرها بالأندلس، وعمد الأندلسيون على العمل بها. لا سيما وأن القاضي عياض درس وحصل العلم بالعديد من مدن الأندلس، وبعد توليه قضاء مدينته سبتة تولى قضاء غرناطة مما كان له أكبر الأثر في انتشار أقواله وفتاويه.

وتجدر الإشارة إلى أننا في عصر الموحدين نجد أفكاراً شيعية في فكر ابن تومرت رأس دولة الموحدين وهو ما عبر عنها المراكشي بقوله: "كان يبطن شيئاً من التشيع غير أنه لم يظهر منه على العامة شيئاً (3)، ومعلوم أن ابن تومرت كانت له رحلة إلى الأندلس أثر خلالها وتأثر. أضف إلى ذلك أن أفكاره العقدية كان لها انتشار بالأندلس في عهد خلفائه،

1 أنظر: ترتيب المدارك، 7 / 277.

2 أنظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 1 / 290.

(3) أنظر: المعجب، ص 162؛ المنوني، حضارة الموحدين، ص 41.

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

ومن جملة هذه الأفكار الشيعية قضية العصمة والمهدوية والإمامة التي أصل لها بطريقة تقترب من طريقة الشيعة الإمامية. حيث أعلن على الملأ سنة 515هـ/1121م: " وجوب اعتقاد الإمامة على الكافة ، وهى ركن من أركان الدين ، وعمدة من عمد الشريعة ، ولا يصح قيام الحق فى الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة فى كل زمان من الأزمان إلى أن تقوم الساعة .... ولا يكون الإمام إلا معصوماً " . ثم إن ابن تومرت يتوعد من لا يؤمن بفكرته عن العصمة والمهدوية بأنه كافر جاحد أو فاجر فاسق<sup>(1)</sup>.

والغريب فى الأمر أن هذه الأفكار جاءت هذه المرة من قبل صاحب سلطة وقوة وبطش ، وهو ما جعل بعض الفقهاء الرسميين يتابعونه عليها إلى حين ، ومن ثم وجدنا الموقف الرسمى فى المغرب والأندلس يؤيد ابن تومرت فى فكرته . فهذا قاضى القضاة ابن مضاء الظاهرى ينص على ذلك فى صدر أحد كتبه بقوله : وأسأل الله الرضى عن الإمام المعصوم والمهدي المعلوم ، وعن خليفته سيدنا أميرى المؤمنين ، والوراثين مقامه العظيم ، وأصل الدعاء لسيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين " ... (2) ، وعنى ابن مضاء بالإمام المعصوم محمد بن تومرت ، وعنى بأمرى المؤمنين عبدالمؤمن بن على ، وابنه يوسف بن عبدالمؤمنوعنى بأمرى المؤمنين بن أمير المؤمنين يعقوب المنصور الموحدى ، ولعله كان مجاملا للسلطة وقتها مخافة البطش حتى أبطل المنصور هذه البدعة .

(1) أنظر : كتاب أعز ما يطلب ، ص 245، 246، 254؛ صلاح السيد ، التربية الإسلامية بالمغرب الأقصى ، ص 65، 66؛ عبدالباقى السيد : الظاهرية والمالكية ، ص 111.

2 أنظر : الرد على النحلة ، تحقيق محمد ابراهيم البنا ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ط 1 ، 1399هـ/1979م ، ص 63.

ظلت هذه الأفكار على المستوى الرسمي منتشرة في المغرب والأندلس طيلة عهد المهدي ابن تومرت وخليفته عبدالمؤمن بن علي ويوسف ابنه رغم معارضة بعض القبائل والأفراد لها في المغرب والأندلس (1)، حتى أعلن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن معارضته لها فبدأت موجة جديدة من المعارضة لها ، وإن استمر اعتقاد البعض من المغاربة والأندلسيين لهذه الأفكار حتى أبطلها المأمون بن المنصور في منشور رسمي .

ومن المعارضين على المهديوية والعصمة الكاتب أبو الحسن عبد الملك بن إياس القرطبي الذي ألف كتابا طعن فيه في مبادئ الموحدين ، وقد انتدب عبدالمؤمن للرد عليه بعض الأعلام الذين عرفوا بقوة الحججة في الجدل والمناظرة (2) ، وذلك في إطار دفاع الدولة رسميا عن أفكارها ، وقد اعترض عليها من الموحدين أنفسهم المنصور الموحدى الظاهري حيث رفض عصمة ابن تومرت الذي ادعى أنه المهدي المنتظر ، وشهد بحجر الكعبة أنه لا يقول بعصمته ، وطبق ذلك عمليا بدولته . إذ إنه كان يعترض على من يصف المهدي بالإمامة والعصمة بحضرتة ويغضب منه (3) .

وقد تابع المنصور في اعتراضه على المهدي ابنه المأمون (626-630هـ/1229-1232م) الذي محى اسم ابن تومرت من الخطبة والسكة ، وأعلن أن وصفه بالإمام المعصوم نفاق وبدعة وأمر باطل ، حيث أنه لا مهدي إلا عيسى عليه السلام ، وكان عمله هذا هو رغبة أبيه المنصور الذي كان من أشد حكام الدولة تأثرا بابن حزم ، وكتب الكتب بلعن

1 عبد الباقي السيد : الظاهرية والمالكية ن ص 113 .

(2) عبد المجيد النجار ، المهدي بن تومرت ، 426، 425، 474 .

(3) المراكشي ، المعجب ، ص 291، 292 .

المهدى في البلاد وقال ( كيف يدعى العصمة من لا يعرف بأى يد يأخذ كتابه) فتمكن بغض المهدي في القلوب ، ولم يترتب على ما فعله المأمون أية معارضة من قبل الرعية ، بل أشاد الشعراء بتصرفه وأزجوا إليه مدائحهم في قصائد عديدة (1) ، وبذلك فقد نجح في تصديق تلك العقيدة واختفى الحماس الذي كان لها في أوائل العهد الموحدى ، ودب الشك في الإيثار بها.

ويرجع اعتراض المأمون على المهديوية ومحو رسومها إلى تأثيره بأبيه المنصور في ضرورة نشر المذهب الظاهري علانية ، ومن ثم كان عليه أن يبطل ما يتعارض مع هذا المذهب الذى يرفض نظرية المهدي من أساسها(2). كما أن هذه العقيدة إحدى الأصول التى بنى عليها المذهب الشيعى هى ومسألة الرجعة ، وهو المذهب الباطنى العدو للودود للظاهرة والمذهب الظاهري ، أضف إلى ذلك اعتماد المأمون على كلام ابن حزم بخصوص الأحاديث الواردة بشأن المهدي التى اعتبرها من اختلاق الروافض ، وأنها وليدة التأثير باليهود والنصارى والمجوس (3)، فضلا عن سيطرة أشياخ الموحدين من المؤمنين بفكرة

---

(1) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، فرانز ستايز شتوتفارت ، 1412هـ/1992م ، 8/322،323 ؛ وانظر : ابن خلدون ، العبر، 6/253 ؛ ابن الخطيب ، الإحاطة، 1/419،420؛ الناصرى ، الاستقصا ، 2/238 ؛ ابن أبى دينار ، المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس ، تحقيق محمد شمسام ، المكتبة العتيقة ، تونس ، ط2 ، 1967م ، ص 126 ؛ محمد عبدالله عنان ، عصر المرابطين والموحدين، ص 370-372؛ محمود إسماعيل ، سوسولوجيا الفكر الإسلامى، مينا للنشر، ط1992م ، 3/177 ؛ عبدالباقى السيد ، ابن حزم ، ص 301.

(2) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، 8/320 ؛ وعن موقف المذهب الظاهري من نظرية المهدي أنظر : ابن حزم ، المحلى ، 1/43 ؛ عبدالباقى السد ، ابن حزم ، ص 299-302.

(3) عبدالباقى السيد : الظاهرية والمالكية ، ص 115 ؛ وانظر رأى ابن حزم بخصوص هذا الشأن فى : الفصل ، 1/165،372.

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

المهدوية على كل شيء في الدولة حتى صار الخلفاء رهن إشارتهم ، ومن ثم كان لزاما على المأمون أن يقضى على هذه الفكرة التي يتقوون بها (1). كما أن المهدي ادعى العصمة ، ولم يتوقف على ادعائه المهدي ، والعصمة لم تثبت إلا للنبي ، فكيف يدعى هو العصمة التي لم تثبت للصحابة وهم خيرة الناس (2).

وقد اتبع الرشيد سياسة أبيه المأمون في بداية حكمه سنة 630هـ/1232م في التنكر للمهدية وعصمة المهدي ، لكنه اضطر بعد ذلك إرضاءً لشيوخ المصامدة أن يعترف بالمهدية لإحداث نوع من التوازن بين القوى القبلية ، ولكن مع مراعاة عدم المغالاة كما كانت أيام المهدي وخليفته عبدالمؤمن ويوسف ، وفي عهد المرتضى نجده يسلب المهدي عصمته ويكتفى بوصفه في رسائله بالإمام القائم بأمر الله (3) بل إن المصلين في عهده كانوا يعترضون على الخطباء الذين يقولون بعصمة المهدي (4) .

وهذه التغيرات إن دلت فإنها تدل على مدى النجاح الذي حققه المأمون بإلغائه رسوم المهدي - والتي كانت إحدى النزعات الشيعية التي انتشرت بالمغرب والأندلس - ، وهو انتصار كبير لفقهاء الظاهرية ومعهم المالكية أيضا .

---

(1) عز الدين عمر ، الموحدون ، ص 149، 150؛ وانظر : أحمد عزاوي ، رسائل موحدية ، 1/386.  
(2) مجهول ، الحلل المشوية في ذكر الأخبار المراكشية ، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية ، المطبعة الاقتصادية ، رباط الفتح ، 1936م ، ص 138 ؛ وانظر : عبد الباقي السيد : الظاهرية والمالكية ، ص 115، 116.

(3) أحمد عزاوي ، رسائل موحدية ، 2/214، 215، 212، 213.

(4) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص 445، 446؛ وانظر : عبد الباقي السيد : الظاهرية والمالكية ، ص 116.

كذلك فقد اعترض الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الظاهري (ت 638هـ/1240م) على مهديّة ابن تومرت وعصمته رغم قوله بضرورة خروج المهدي المنتظر إذ كان يراه لم يظهر بعد<sup>(1)</sup> وهو الأمر الذي لقي قبولا كبيرا بين تلامذته والظاهرية عموما. كما اعترض على المهديّة بعض المالكية من أتباع (ابن العريف الصوفي) الذي أفتى في رسالة له ردا على تساؤل عن المهدي "وانتظار مهدي يصلح به لا يعتقده حصيف ، ولا يظن مثله بمسلم إلا ضعيف " ، بل إنه ذهب إلى أبعد من هذا عندما صرح في رسالة خاطب بها أحد أصحابه وأتباعه قائلا عن ابن تومرت ومهديته وعصمته : " إن الله أرحم بالأمة أن يفتقر سلطانها إلى شخص واحد بعينه حتى لا تصلح إلا به " <sup>(2)</sup>.

ويبرز الإمام القرطبي المالكي صاحب التفسير في عصر بني نصر ليين حقيقة طعن الشيعة في الصحابة بقوله: "وأما الروافض فليس قولهم مما يشتغل به ولا يحكى مثله، لما فيه من الطعن على السلف والمخالفة لسبيل المؤمنين." <sup>(3)</sup>.

وقال أيضا موضحا بدع الشيعة : " قيل لأبي عبدالله: فإن قال رجل: أنا أذهب إلى حديث أبي أيوب (حُبب إليّ الغسل) قال: نحن لا نذهب إلى قول أبي أيوب، ولكن لو ذهب إليه ذاهب صلينا خلفه، قال: إلا أن يترك رجل المسح من أهل البدع من الرافضة الذين لا يمسحون وما أشبهه، فهذا لا نصلي خلفه... " <sup>(4)</sup>.

(1) ابن عربي ، الفتوحات المكية ، تحقيق أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1420هـ/1999م ، 6/50 وما بعدها .

(2) أنظر : مفتاح السعادة ، ص34، 35.

3 أنظر : الجامع لأحكام القرآن ، 8/161.

4 أنظر : التفسير ، 11/140.

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

وقال أيضا عن معتقد الشيعة في القرآن : " وقد طعن الرافضة قبحهم الله تعالى في القرآن "(1).

وقال رحمه الله منتقداً الشيعة في ادعائهم كتمان النبي لبعض الدين : قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ " [المائدة:67] قيل: معناه أظهر التبليغ; لأنه كان في أول الإسلام يخفيه خوفاً من المشركين، ثم أمر بإظهاره في هذه الآية، وأعلمه الله أنه يعصمه من الناس، وكان عمر رضي الله عنه أول من أظهر إسلامه وقال: لا نعبد الله سراً وفي ذلك نزلت: " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ " الأنفال:64. فدللت الآية على رد قول من قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم كتم شيئاً من أمر الدين تقية، وعلى بطلانه، وهم الرافضة، ودلت على أنه صلى الله عليه وسلم لم يسر إلى أحدٍ شيئاً من أمر الدين; لأن المعنى: بلِّغ جميع ما أنزل إليك ظاهراً، ولولا هذا ما كان في قوله عز وجل: " وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ " [المائدة:67] فائدة(2).

1 أنظر : نفسه ، 85/1.

2 أنظر : تفسير القرطبي ، 228/6.

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

obeyikan.com

## المبحث الثاني : موقف أهل السنة من الخوارج

وفيما يخص الموقف من الخوارج فإن فقهاء المالكية قد واجهوا الأباضية من خلال الفتوى حيث أفتى بعضهم أن المعتنق للأباضية يستتاب وإلا قتل ، والبعض الآخر ذهب إلى أنهم في النار ونهى عن الصلاة خلفهم وقال بأن الأباضي كالكافر يقتل بغير استتابة ، ومنهم من نهى عن تعليم الخوارج وأولادهم القرآن والكتب الشرعية (1) . وهذا التوجه يلفت نظرنا إلى أن المجتمع الأندلسي في عصر الدولة الأموية وما تلاه من عصور - باستثناء بعض الفترات التي حكم فيها الخوارج في عصر ملوك الطوائف - لفظ الخوارج على المستوى الرسمي . إذ منعهم من الصلاة في مساجد السنة ، ومنعهم من حضور جلسات العلم ، ومن حفظ القرآن على يد شيوخ السنة .

ظلت هذه المعارضة من قبل المالكية في عصر المرابطين في المغرب والأندلس على السواء حيث وجدنا قاضياً بارزاً من قضاة المالكية وهو القاضي عياض اليعصبى يتعقب بعض أقوال الخوارج ويتقدمها ومن جملتها عدم اشتراط كون الإمام قرشياً حيث قال : " اشتراط كون الإمام قرشياً مذهب العلماء كافة ، وقد عدوها في وسائل الإجماع ولم ينقل عن أحد من السلف فيها خلاف ، وكذلك من بعدهم في جميع الأمصار ، ولا اعتداد بقول الخوارج ومن وافقهم من المعتزلة لما فيه مخالفة المسلمين " (2).

(1) أنظر: ابن سهل ، ثلاث وثائق في محاربة الأهواء والبدع في الأندلس ، ص32، 27، 26-34 ؛  
الونشريسي ، المعيار، 237/8 ؛ محمود مكي ، الخوارج بالأندلس، ص171 .  
2نقلا عن ابن حجر : فتح الباري ، 128/13 ، 129.

لم تقتصر مواجهة الخوارج على الجانب الرسمي فحسب بالنسبة للدولة وفقهائها . بل وجدنا أحد فقهاء السنة من غير الاتجاه الرسمي ، وهو ابن حزم الظاهري يسلك في مواجهة الخوارج مسلكين :-

أحدهما : المناظرة وإن لم يذكر لنا موضوعات المناظرة ولم يدونها في كتبه التي بين أيدينا مثل ما فعل مع بعض الفرق الأخرى (1) .

الثاني : انتقاده لأصولهم ومبادئهم التي جمعها في كتابه - الفصل - بالحجج العقلية والنقلية ومن ذلك قولهم أن الشفاعة لا تنال أصحاب الكبائر من أمة الإسلام (2) وإنكارهم عذاب القبر (3) وإجازتهم للخلافة في غير قريش (4) ونفيهم لظهور الدجال (5) .

وبشأن تعقب ابن حزم لأصول الخوارج وأفكارهم فقد أبطل قولهم في الشفاعة بقوله : " من يؤمن بالشفاعة أنه لا يجوز الإقتصار على بعض القرآن دون بعض ولا على بعض السنن دون بعض ولا على القرآن دون بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال له ربه عز وجل لتبين للناس ما نزل إليهم وقد نص الله تعالى على صحة الشفاعة في القرآن فقال تعالى لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً فأوجب عز وجل الشفاعة إلا من اتخذ عنده عهداً بالشفاعة وصحت بذلك الأخبار المتواترة المتناصرة بنقل الكواف لها قال تعالى يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قوله وقال تعالى ولا تنفع

(1) أنظر: الفصل، 2/374، 373.

(2) نفس المصدر، 2/366-370؛ وانظر: عبدالقادر البجراوى؛ الخوارج، ص 84.

(3) أنظر: الفصل، 2/372-374.

(4) نفس المصدر، 3/7، 6.

(5) نفس المصدر، 1/131، 130.

الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضي له قولا وقال تعالى ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له فنص تعالى على أن الشفاعة يوم القيامة تنفع عنده عز وجل ممن أذن له فيها ورضي قوله ولا أحد من الناس أولى بذلك من محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أفضل ولد آدم عليه السلام وقال تعالى من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى وقال تعالى ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون وقال تعالى ما من شفيع إلا من بعد إذنه فقد صحت الشفاعة بنص القرآن الذي يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فصح يقينا أن الشفاعة التي أبطلها الله عز وجل هي غير الشفاعة التي أثبتتها عز وجل وإذ لا شك في ذلك فالشفاعة التي أبطل عز وجل هي الشفاعة للكفار الذين هم مخلدون في النار قال تعالى لا يخفف عنهم من عذابها ولا يقضي عليهم فيموتوا نعوذ بالله منها فإذا لا شك فيه فقد صح يقينا أن الشفاعة التي أوجب الله عز وجل لمن أذن له واتخذها عنده عهدا ورضي قوله فإنها هي لمذنب أهل الإسلام وهكذا جاء الخبر الثابت (1).

وأبطل إنكارهم لعذاب القبر بالنقل والعقل فقال: " لا يدفع عذاب القبر لأن فتنة القبر وعذابه والمسألة إنما هي للروح فقط بعد فراقه للجسد أثر ذلك قبر أو لم يقبر برهان ذلك قول الله تعالى ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم الآية وهذا قبل القيامة بلا شك وأثر الموت وهذا عذاب القبر وقال إنما توفون أجوركم يوم القيامة وقال تعالى في آل فرعون النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم

الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب فهذا العرض المكور هو عذاب القبر وإنما قيل عذاب القبر فأضيف إلى القبر لأن المعهود لما كان هؤلاء فتنة ولا عذاب قبر ولا مسألة ونعوذ بالله من هذا والغريق تأكله دواب البحر والمحرق والمصلوب والمعلق فلو كان على ما يقدر من يظن أنه لا عذاب إلا في القبر المعهود لما كان هؤلاء فتنة ولا عذاب قبر ولا مسألة ونعوذ بالله من هذا بل كل ميت فلا بد من فتنة وسؤال وبعد ذلك سرور أو نكد إلى يوم القيامة فيوفون حينئذ أجورهم وينقلبون إلى الجنة أو النار وأيضا فإن جسد كل إنسان فلا بد من العود إلى التراب يوما ما كما قال اله تعالى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى فكل من ذكرنا من مصلوب أو معلق أو محرق أو أكيل سبع أو دابة فإنه يعود رمادا أو رجيعا أو يتقطع فيعود إلى الأرض ولا بد وكل مكان استقرت فيه النفس أثر خروجها من الجسد فهو قبر لها إلى يوم القيامة وأما من ظن أن الميت يحيى في قبره فخطأ لأن الآيات التي ذكرنا تمنع من ذلك ولو كان ذلك لكان تعالى قد أماتنا ثلاثا وأحيانا ثلاثا وهذا باطل وخلاف القرآن إلا من أحياه الله تعالى آية لنبي من الأنبياء والذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال إنني يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه وكذلك الله تعالى الله يتوفى الأنفس حين موتها إلى قوله إلى أجل مسمى فصح بنص القرآن أن روح من مات لا يرجع إلى جسده إلا إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة ، وكذلك أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى الأرواح ليلة أسري به عند سماء الدنيا عن يمين آدم عليه السلام أرواح أهل السعادة وعن شماله أرواح أهل الشقاء وأخبر عليه السلام يوم بدر إذ خاطب القتلى وأخبر أنهم وجدوا ما توعدهم به حقا قبل أن يكون لهم قبور فقال المسلمون يا رسول الله أتخاطب قوما قد جيفوا فقال عليه

السلام ما أنتم بأسمع لما أقول منهم فلم ينكر عليه السلام على المسلمين قولهم أنهم قد جيفوا وأعلمهم أنهم سامعون فصح أن ذلك لأرواحهم فقط بلا شك وأما الجسد فلا حس له .... وقد صح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه رأى موسى عليه السلام قائما في قبره يصلي ليلة الإسراء وأخبر أنه رآه في السماء السادسة أو السابعة وبلا شك إنها رأى روحه وأما جسده فتوارى بالتراب بلا شك فعلى هذا أن موضع كل روح يسمى قبرا فتعذب الأرواح حينئذ ولا تسأل حيث كانت وبالله تعالى التوفيق " (1).

وانتحي ابن حزم لإبطال قول الخوارج بجواز الخلافة في غير قريش معولا على النص والإجماع والعقل فقال: " وبوجوب الإمامة في ولد فهر ابن مالك خاصة نقول بنص رسول الله صلى الله عليه و سلم على أن الأئمة من قريش وعلى أن الإمامة في قريش وهذه رواية جاءت مجيء التواتر .... ومما يدل على صحة ذلك إذعان الأنصار رضي الله عنهم يوم السقيفة وهم أهل الدار والمنعة والعدد والسابقة في الإسلام رضي الله عنهم ومن المحال أن يتركوا اجتهادهم لاجتهاد غيرهم لولا قيام الحججة عليهم بنص رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن الحق لغيرهم في ذلك " (2).

ويستطرد ابن حزم في جدله وهو يرد على الخوارج فيوضح حكم الخليفة والمولى لقريش بقوله: " فإن قال قائل أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم الأئمة من قريش يدخل في لك الخليفة والمولى وابن الأخت لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم مولى القوم منهم ومن أنفسهم وابن أخت القوم منهم فالجواب وبالله تعالى التوفيق أن الإجماع قد تيقن

1 أنظر: الفصل، 2/372-374.

2 أنظر: الفصل، 3/6، 7.

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

وصح على أن حكم الحليف والمولى وابن الأخت كحكم من ليس له حليف ولا مولى ولا ابن أخت فمن أجاز الإمامة في غير هؤلاء جوزها في هؤلاء ومن منعها من غير قريش منعها من الحيف والمولى وابن الأخت فإذا صح البرهان بأن لا يكون إلا في قريش لا فيمن ليس قرشياً صح بالإجماع أن حليف قريش مولاهم وابن أختهم كحكم من ليس قرشياً وباللّٰه تعالى التوفيق" (1).

ويقف ابن حزم مع إنكار الخوارج للدجال وقفة متأنية بشأن الأفعال التي تصدر من الدجال فيقارنها بما كان يفعله سحرة فرعون من الحيل ، وكذا ما كان يفعله الحجاج وأصحاب العجائب وينص على ذلك بقوله : " وأما قولنا في هذا فهو أن العجائب الظاهرة من الدجال إنما هي حيل من نحو ما صنع سحرة فرعون ومن باب أعمال الحلاج وأصحاب العجائب يدل على ذلك حديث المغيرة بن شعبة إذ قال للنبي صلى الله عليه وسلم أن معه نهر ماء ونهر خبز فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أهون على الله من ذلك حدثنا يونس بن عبد الله بن مغيث حدثنا أحمد بن عبد الرحيم حدثنا محمد بن عبد السلام الخشني حدثنا محمد بن بشار بن دار حدثنا يحيى بن سعيد القطان حدثنا هشام بن حسان الفردوسي حدثنا حميد بن هلال عن أبي الدهماء عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من سمع من أمّتي الدجال فليأمنه فإن الرجل يأتيه وهو يحسبه مؤمناً فيتبعه مما يرى من الشبهات. (2). ثم يعب على هذا الحديث بقوله : " وبهذا تتألف الأحاديث وقد بين رسول

1 أنظر : الفصل ، 7/3.

2 أنظر : الفصل ، 130/1.

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أن ما يظهر الدجال من نهر ماء ونار وقتل إنسان وإحيائه أن ذلك حيل " (1).

لم يكتف ابن حزم بذلك بل يوظف معارفه ومرجعياته العلمية في تبين حقيقة حيل الدجال بذكر مسألة رآها بعينه تخص الدبر وحيلها فيقول : " وقد رأينا لدبر يلقي في الماء حتى لا يشك أحد أنها ميتة ثم كنا نضعها للشمس فلا تلبث أن تقوم وتطير وقد بلغنا مثل ذلك في الذباب المسترخي في الماء إذا ذر عليه سحق الآجر الجديد وآيات الأنبياء عليهم السلام لا تكون من وراء حائط ولا في مكان بعينه ولا من تحت ستارة ولا تكون إلا بادية مكشوفة " (2).

ويتزيد ابن حزم في هذا الموضوع عندما يذكر واقعة وقعت له مع أحد المحتالين ونجح في إظهار حيلته وفضيحته فيقول : " وقد فضحت أنا حيلة أبي محمد المعروف بالمرحوق في الكلام المسموع بحضرتة ولا يرى المتكلم وسمت بعض أصحابه أن يسمعي ذلك في مكان آخر أو بحيث الفضاء دون بنيان فامتنع من ذلك فظهرت الحيلة وإنما هي قصبة مثقوبة توضع وراء الحائط على شق خفي ويتكلم الذي طرف القصبة على فيه على حين غفلة ممن في المسجد كلمات يسيرة الكلمتين والثلاث لا أكثر من ذلك فلا يشك من في البيت مع المرحوق الملعون في أن الكلام اندفع بحضرتهم وكان المتكلم في ذلك محمد بن عبد الله الكاتب صاحبه " (3).

1 أنظر: الفصل، 1/131.

2 أنظر: الفصل، 1/131.

3 أنظر: الفصل، 1/131، 132.

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

وإذا كان مفتى الأباضية بعمان في - عصرنا الحالي - قد أنكر على ابن حزم قوله في أباضية الأندلس ودعا الناس إلى عدم الأخذ برأيه دون أن يقدم دليلاً على صحة قوله<sup>(1)</sup> فلا شك أن فقهاء الأباضية في عصره قد عارضوه وأنكروا عليه ما قاله ودونه عنهم دفاعاً عن مذهبهم وأتباعهم ، خاصة وأنهم كانوا كثيرين بالأندلس فضلاً عن أن كل من محمد بن عبدالله البرزالي وابنه إسحاق حاكما قرمونة كانا من الأباضية ، كما ذكرنا بالفصل الثالث من هذه الدراسة ، ومن ذلك يتضح أثر ابن حزم الفكري والعملي إذ مع المعارضة والإنكار تنتشر الآراء - أعنى آراء ابن حزم تجاه الخوارج - ويصبح لها أتباع ومدافعون .

ولابد مما ليس منه بد أن نبين أن عصر الموحدين شهد انتشاراً كبيراً لمصنفات وأفكار ابن حزم الظاهري في المغرب والأندلس على السواء ومن جملتها ردوده على الخوارج وسائر الفرق الإسلامية ، وهو ما يؤكد المراكشي في حدود سنة 621هـ/1224م في ختام ترجمته لابن حزم حيث قال : " وإنما أوردت هذه النبذة من أخبار هذا الرجل ، وإن كانت قاطعة للنسق مزيجية عن بعض الغرض لأنه أشهر علماء الأندلس اليوم وأكثرهم ذكراً في مجالس الرؤساء ، وعلى ألسنة العلماء وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب ، واستبداده بعلم الظاهر ، ولم يشتهر به قبله عندنا أحد فيما علمت ، وقد كثر مذهبه وأتباعه عندنا بالأندلس اليوم " (2) .

(1) عبدالقادر البجراوى ، الخوارج ، ص 88 هامش (1) .

(2) أنظر : المعجب ، ص 49 .

## المبحث الثالث : موقف أهل السنة من المعتزلة

وأما بشأن موقف أهل السنة من المعتزلة فقد لقي ابن مسرة المعتزلي معارضة السلطة الأندلسية والعلماء لمخالفته للمذهب المالكي حيث أنفذ الخليفة الناصر لدين الله إلى آفاق ملكه كتابا طويلا - كتبه الوزير الكاتب عبدالرحمن بن عبدالله الزجالى - بحث فيه على استئصال شأفتهم وتتبع أقوالهم ، وتحذير الناس منهم ، وورد بالكتاب العديد من النصوص القرآنية التى تبين ضلال المسرية ، كما صور الكتاب حالة الخليفة الناصر بعد أن وصلته أخبارهم حيث انشغلت نفسه بهذا الأمر وأقضى مضجعه وأسهر ليله ، كما أمر الناصر بتلاوة هذا الكتاب على المنبر الأعظم بحضرته ليقرع قلب الجاهل ويفت كيد المستهتر الحائر وينقض عزم المعاند المعاجل ويضطر الغواة إلى الإنابة الصحيحة التى تقبلها الله منهم أو يكشف عن الأذهان سرائرهم فيكون عليهم الشهيد (1).

لم تتوقف السلطة الحاكمة عند حد هذا الكتاب فى مواجهة أتباع ابن مسرة المعتزلي بل يذكر ابن حيان أن البحث عنهم ظل مستمرا طيلة أيام عبدالرحمن الناصر بقوله : " وتمادى الطلب لهذه الفرقة المسرية ، والإخافة لهم ، وتخويف الناس من فتنتهم ، بقية أيام الناصر لدين الله " (2).

كذلك فقد انبرى التيار الرسمى فى عهد الخلافة الأموية بالأندلس للتصدى لأفكار ابن مسرة المعتزلي وأتباعه وفى مقدمة ذلك القاضى المالكى محمد بن يبقى بن زرب

(1) محمد عبدالحميد عيسى : تاريخ التعليم فى الأندلس ، ص 121-125.

2 أنظر : محمد عبدالله عنان : اكتشاف السفر الخامس من المقتبس ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمديرد ، 1965-1966م ، عدد 13 ، ص 137.

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

(ت381هـ/991م) والذي وصف أبو الحسن البناهي (1) جهوده في تقصى المسرية والرد عليهم بقوله : " واعتنى القاضى ابن زرب بطلب أصحاب ابن مسرة ، والكشف عنهم ، واستتابه من علم أنه يعتقد مذهبهم ; وأظهر للناس كتاباً حسناً وضعه في الرد على ابن مسرة ، قرئ عليه وأخذ عنه " (2) .

ويصف لنا البناهي واقعة لاستتابة ابن زرب للمسرية بقوله : " وكان سنة 350 هـ استتاب جملة جيء بهم إليه من أتباع ابن مسرة ; ثم خرج إلى جانب المسجد الجامع الشرقي ، وقعد هناك ; فأحرق بين يده ما وجد عندهم من كتبه وأوضاعه ; وهم ينظرون إليه في سائر الحاضرين " (3) .

ويلحق بابن زرب في الرد على المسرية أحد ممثلي الاتجاه الرسمي في الدولة وهو أبو بكر الزبيدي الأديب واللغوي والنحوي الأندلسي الشهير مؤدب الخليفة هشام المؤيد بن

---

1 هو البناهي بالباء قبل النون كما حققناه في بحثنا أجناس الكتابة التاريخية عند أبي الحسن البناهي ، والذي ألقيناه بمؤتمر الحضارة الأندلسية الدولي بمركز الحضارة الإسلامية بمكتبة الإسكندرية في الفترة من 15-17 نوفمبر 2016م ، وقد سبقنا إلى هذا التحقيق العلامة محمد بن شريفة في دراسة مائة له بعنوان البناهي لا البناهي ؟. وسبب هذا اللبس النسخة التي نشرها المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال في العام 1948م جاعلا اسمه البناهي بالنون قبل الباء ، وهو وهم أكدنا عليه من خلال العديد من المخطوطات فضلا عن كلام المتخصصين في المؤلف والمختلف من علماء الحديث كما هو مبين في موضعه .

2 أنظر : تاريخ قضاة الأندلس ، ص 78 ; محمد عبد الحميد عيسى ، تاريخ التعليم في الأندلس ، ص 118 ;

Asin placios ,The mystical philosophy of Ibn masarra , P.95-118

3 أنظر : تاريخ قضاة الأندلس ، ص 78 .

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

المستنصر الذى صنف كتابا وسمه بـ " هتك ستور الملحدين " (1) ، ويتضح من عنوان الكتاب شدة صاحبه فى التصدى لأفكار المسيية .

ومن جملة الردود على المسيية من أصحاب الاتجاه الرسمى فى الدولة الحافظ والفقيه المالكي أبو عمر الطلمنكي ( ت 429هـ/1038م) شيخ الحافظين ابن حزم وابن عبد البر فقد صنف كتابا ضخما استهدف من خلاله كشف العورات المستورة لمذهب ابن مسرة (2).

ولا شك أن الدولة بما قدمناه أنفا واجهت أتباع ابن مسرة بقدها وقضييها ، وهو ما عبر عنه ابن حيان بقوله : " وجرت لهم خطوط يطول القول فيها " (3). ورغم كل هذه المواجهات والامتحانات والامتهان الشديد للمسيية فإن القاضي الذى ناهض هذه الحركة لم يتمكن من الوصول إلا إلى نتائج بسيطة لا يعرف مدى خطورتها ، ومن ثم فلم يتعرض أيا من المسيية لعقوبة كبرى بسبب معتقدتهم المعتزلى على حد قول المستشرق الأسباني أسين بلاسيوس (4).

على أية حال لم تتوقف حملة مواجهة المسيية على أصحاب الاتجاه الرسمى فى الدولة فحسب بل وجدنا اتجاها آخر كان محسوبا على المعارضة ، وقد مثله ابن حزم الظاهري الذى اندفع لتفنيد آراء المعتزلة بالأندلس تحت تأثير سببين :-

1 محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم فى الأندلس ، ص 118.

2 نفس المرجع والمكان والصفحة .

3 أنظر : المقتبس ، تحقيق شالميتا ، ص 24.

4Asin placios :Ibn masarra y su Escuela , p.89,90.

الأول : تأثره بشيخه (أحمد الطلمنكى) الذى توجه بالنقد لآراء ابن مسرة كما سبق وأن أشرنا.

الثانى : ازدهار المذهب الاعتزالى بالأندلس والذى أصبح يمثل جماعة يخشى بأسها . بل سعت لقلب نظام الحكم الأموى أكثر من مرة كما أسلفنا بالفصل الثالث من هذه الدراسة ، وهو ما حرك السواكن بداخل ابن حزم صاحب النزعة الأموية ليقف فى وجه هذه الموجه الاعتزالية .

سلك ابن حزم مسلكين لمجابهة المشروع الاعتزالى هما :-

الأول: المناظرة لأتباع المذهب الاعتزالى حول مبادئه وأصوله ، التى كانت فى مجملها تعتمد على العقل أكثر منها على النقل ، مثل مناظرته لجماعة من أتباع ابن مسرة حول (علم الله هل هو الله أم غيره ؟، وهل هو محدث مخلوق أم لا؟) (1) وأخرى مع واحد من أتباع ابن مسرة حول (قدرة الله تعالى) ، حيث بدأ المناظر بقوله إن القرآن جاء بأن الله يفعل ما يشاء ، ونحن لا ننكر هذا وإنما نمنع أن يوصف الله بالقدرة على ما لا يشاء ، فرد عليه ابن حزم بجمع من الآيات منها قوله تعالى (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) [ سورة الرعد آية 26 ] وقوله (أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى) [ سورة يس آية 81 ] وقوله (إنه لن يؤمن من قومك إلا من آمن) [ سورة هود آية 36 ] وقوله (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) [ سورة الأنعام آية 65 ] ثم عقب على هذه الآيات بقوله " فهذا نص على أنه قادر على

(1) ابن حزم ، الفصل ، 376/1 - 393 .

أن يفعل... ما قد سبق في علمه من هدى من علم أنه لا يهديه ، ومن تعذيب من علم أنه لا يعذب أبدا ، ومثل هذا في القرآن كثير<sup>(1)</sup> وهكذا فقد استنطق ابن حزم في مناظرته هذه النصوص القرآنية من واقع العقل ، وأفحم الخصم بما جعله يؤثر الصمت<sup>(2)</sup>.

**الثاني :** الرد على مبادئهم المخالفة لأهل السنة في فصول خاصة من كتبه ، مثل فصل الرؤية حيث ذهب المعتزلة إلى أن الله لا يرى في الآخرة ، واحتجت بقوله تعالى ( لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ) [ سورة الأنعام آية 103 ] فرد عليهم ابن حزم بأن هذه الآية لا تنفي الرؤية وإنما تنفي الإدراك ، الذي هو منتف عن الله ، أما الرؤية فثابتة في قوله تعالى ( وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ) [ سورة القيامة آية 23، 22 ] وفصل عن القرآن إذ قالت المعتزلة إن كلام الله مخلوق ، فرد عليهم ابن حزم بأن القرآن كلام الله ، ويكفر من لم يقل بذلك ، وهو غير مخلوق وليس هو غير الله ، وفصل عن الشفاعة التي أنكرتها المعتزلة ، فرد عليها ابن حزم بقوله تعالى ( يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا ) [سورة طه آية 109 ] وبقوله تعالى لرسوله ( عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ) [ سورة الإسراء آية 79 ] والمقام المحمود هو إراحة الناس من هول الموقف وشناعته يوم القيامة<sup>(3)</sup> إلى غير ذلك من أقوالهم التي انتقدها ابن حزم في الجزء الثاني من الطبعة التي اعتمدنا عليها

(1) أنظر : الفصل ، 2/26، 25.

(2) أنظر : المصدر السابق ، 2/117-119 .

(3) نفسه ، 2/34-47 ، 168-186 ، 366-369.

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

من كتابه - الفصل - كما خصهم بفصل كامل ضمن كتابه السابق استقصى فيه مبادئهم المخالفة لأهل السنة وانتقدها بحجج عقلية ونقلية (1).

وهكذا فقد استطاع ابن حزم أن يواجه المعتزلة ويفند آراءهم من خلال المناظرة والتدوين ، تاركا بذلك أثراً على الأندلسيين عامة وتلاميذة خاصة الذين اهتموا بمناظراته ودراساته الخاصة بهذا الشأن (2).

وقد لقيت أفكار المعتزلة - ومن سار على دربهم في التأويل - اعتراضاً من فقهاء الشافعية بالأندلس في القرنين الرابع والخامس الهجريين (3) حيث نقلوا أقوال وفتاوى أئمتهم بالمشرق وأذاعوها بالأندلس ليبينوا وجهة نظرهم بخصوص المعتقد الاعتزالي ومن هذه الأقوال قول الإمام أبو العباس بن سريج (ت 306هـ) الملقب بالشافعي الثاني: " لا نقول بتأويل المعتزلة والأشعرية والجهمية والملحدة والمجسمة والمشبهة والكرامية والمكيفة بل نقبلها بلا تأويل ونؤمن بها بلا تمثيل " (4).

كذلك كان لفقهاء الأحناف دور في مواجهة المعتقد الاعتزالي بالأندلس في عصر الخلافة وبعدها (5) حيث نشروا أقوال أئمتهم بشأن التأويلات الاعتزالية ومنها كلام الإمام الطحاوي صاحب العقيدة الطحاوية ، التي كتبها لبيان معتقد الإمام أبي حنيفة وأصحابه ،

(1) أنظر: ج3 ص128-141

(2) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم 1 ج1 ص170 ; وأنظر : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، 18/199.

3 عبد الباقي السيد : ابن حزم الظاهري ، ص55.

4 البغدادي : تاريخ بغداد 4/290 ; وانظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ، 14/201 ; وعن عقيدة ابن سريج

أنظر : ابن القيم : اجتماع الجيوش الإسلامية ، 62.

5 عبد الباقي السيد : ابن حزم الظاهري ، ص56.

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

وبين فيها أن أبا حنيفة صرح بكفر من قال إن الله ليس على العرش أو توقف فيه ، وتلميذه أبو يوسف كفر بشراً المريسي (1).

وفي ظل دولة المرابطين ظلت المعتزلة عرضة لهذه الحملة الشديدة من قبل السلطة وفقهاء المالكية ، لا سيما وأن المذهب المالكي كان هو المذهب الرسمي في عهد المرابطين ، ومن ثم انتشرت أفكار وفتاوى المالكية ضد المعتزلة في ظل هذه الدولة .  
وفي عهد الموحدين رغم أن ابن تومرت أول حاكم لهذه الدولة حمل فكره في طياته أفكاراً اعتزالية إلا أن أفكار ابن حزم المعارضة للمعتزلة كانت أكثر انتشاراً وقبولاً في الأندلس في ظل هذه الدولة .

---

1الذهبي : سير أعلام النبلاء ، 201/10 . 200 .

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

obeyikan.com

## المبحث الرابع : موقف أهل السنة من الأشعرية

وفيما يخص الأشعرية والموقف منهم فلا بد أن نقرر بداية أن بعض المالكية من أصحاب التيار الرسمي في عصر الخلافة الأموية وعصر ملوك الطوائف قد انتهجوا نهجا أشعريا كأبي الوليد الباجي الذي صار رأساً من رؤس الأشاعرة بالأندلس ، ثم ابن سهل الجياني صاحب الأحكام الكبرى ، ثم يستمر هذا الأمر لنراه في عهد المرابطين حيث نجد رأساً من رؤس المالكية وهو ابن العربي المالكي من أكابر منظري الأشعرية والمدافعين عنها ، وهو الأمر ذاته الذي وجدناه في ظل دولة الموحيدين التي غلب عليها في المعتقد النزعة الأشعرية كما سبق وأن أشرنا بالفصل الثالث من هذه الدراسة .

هذا التحول في حد ذاته يجعل الباحث في حيرة شديدة تجاه هذه المسألة لا سيما وأن الرأي المعتمد عند المالكية قبل هذا التحول كان ينظر إلى الأشاعرة على أنهم من أهل الأهواء ، وهو الأمر الذي نقل عن العلامة الكبير ابن عبد البر النمري - الذي بدأ مالكيًا ثم تحول للظاهرية ثم انخلع وأصبح إماماً من أئمة الاجتهاد - حيث روى بسنده عن فقيه المالكية بالمشرق ابن خويز منداد " أنه قال في كتاب الشهادات شرحاً لقول مالك لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء ، وقال: " أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع أشعرياً كان أو غير أشعري ولا تقبل له شهادة في الإسلام أبداً ويهجر ويؤدب على بدعته فإن تهادى عليها استتيب منها(1) ، وروى ابن عبد البر نفسه في " الانتقاء عن الأئمة الثلاثة " مالك وأبي حنيفة والشافعي " نهيمهم عن الكلام وزجر أصحابه

1 أنظر : جامع بيان العلم وفضله تحقيق عثمان محمد عثمان ، الطبعة المنيرية ، 2/96 ، 117.

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

وتبديعهم وتعزيرهم ومثله ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية فماذا يكون الأشاعرة إن لم يكونوا أصحاب كلام؟

وهذا التوجه من ابن عبد البر النمري في مواجهة الأشعرية كان بعينه عند صاحبه

ابن حزم الظاهري الذي اندفع لدراسة مذهبهم والرد عليهم تحت تأثير عدة أسباب :-

أولها:- اتصاله بأكابر الأشاعرة بالأندلس ومحادثته إياهم في أصول الدين ، ومنهم سليمان بن خلف بن باجة الشهير بأبي الوليد الباجي ، وغيره ممن اكتفى بذكره بقوله : " وسمعت بعض مقدميهم يقول " (1) .

ثانيا:- دفع بعض مثقفي الأندلس ممن كان على اتصال بالأشاعرة له في ذلك، حيث كانوا يخبروه ببعض آرائهم المعارضة لأهل السنة وسبب اعتناقهم لها(2).

ثالثا:- اعتناق بعض المالكية الكبار للمذهب الأشعري مثل أبي الوليد الباجي، فكان رده عليهم ردا على المذهبين الأشعري والمالكي .

رابعا:- قول الأشاعرة بالقياس والذي كان أحد أسباب معارضته للمالكية واختلافه معهم .

خامسا:- لجوء بعض الأشاعرة إلى التأويل والتحريف لآيات القرآن ونصوص السنة عن موضعها الصحيح مثل قولهم إن معنى قوله تعالى (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) [ سورة البقرة آية 146] تعنى أن اليهود والنصارى عرفوا صورة النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرف الإنسان جاره فقط ولم يعرفوا أنه رسول الله ، وكقولهم إن الله ليس له سوى اسما واحدا ، وإن قوله تعالى (ولله الأسماء الحسنی فادعوه بها) [ سورة الأعراف آية 180 ] إنها

(1) أنظر : الفصل ، 3/157، 143 .

(2) نفسه ، 3/160، 159 .

أراد أن يقول لله التسميات الحسنى ، وكذلك قول الرسول (ص) (إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة غير واحد) فإنها أراد أن يقول تسعة وتسعين تسمية فقال تسعة وتسعين اسماً<sup>(1)</sup>.

لهذه الأسباب مجتمعة اندفع ابن حزم يعارض الأشاعرة بكل ما يملك من علم ووسائل فصنف كتابه "اليقين في النقض على الملحدين المحتجين عن إبليس اللعين وسائر المشركين" رداً على بعض من ألد أعدائهم بالأندلس والقيروان، والذين ذهبوا إلى أن إبليس منذ عصى الله تعالى في السجود لآدم لم يعرف أن الله حق ، ولا أنه خلق آدم من تراب وطين ، ولم يسأل الله أن ينظره إلى يوم البعث ، وأن ما ورد في القرآن على لسانه إنما كان قولاً هازلاً مستهزئاً منه بلا معرفة ولا اعتقاد ، وعلى رأس هؤلاء كبير من كبرائهم من أهل القيروان يدعى عطف بن دوناس الذي صنف كتاباً في نصرة ذلك<sup>(2)</sup> كما ضمن ابن حزم كتابه - الفصل - عدة فصول في الرد على مبادئ الأشاعرة وأصولهم بجانب ردوده المتناثرة بالكتاب مثل مبحث شنع المرجئة ، ومبحث الإيثار والطاعات والمعاصي والوعد والوعيد ، ومبحث اعتراضات للمرجئة<sup>(3)</sup>.

لم يكتب ابن حزم بالتصنيف كوسيلة لمجابهة الأشاعرة ، بل عمد إلى الوسيلة المثلى في مواجهة أي فكر مخالف وهي المناظرة حول أصولهم والتي كانت تعقد في مجالس حافلة بالناس ، ومن ذلك مناظرته لأبي الوليد الباجي حول أحوال الناس ومعانيهم ، وما وقع بينه

---

(1) نفس المصدر، 3/152، 144، والحديث رواه البخاري في كتاب التوحيد من صحيحه باب 12، وكتاب الشروط باب 18.

(2) نفس المصدر، 3/144، 143، وعطف بن دوناس لم أعثر له على ترجمة فيما بين يدي من مصادر .

(3) أنظر: الفصل، 2/209-3/245، 143-165 .

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

وبين بعض مقدميهم حول - الذنوب هل يكون فيها صغائر أم لا؟ -، فقد ذهب المناظر إلى إنكار أن يكون فيها صغائر، فعارضه ابن حزم بقوله تعالى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) [سورة النساء آية 131] الأمر الذي ألجم مناظره وجعله يلتزم الصمت (1) ومثل ما وقع بينه وبين أحدهم حول - جواز اقتراف الأنبياء الصغائر بالعمد -، وهو القول الذي كان يدين به المناظر فسأله ابن حزم أليس من الصغائر تقبيل المرأة الأجنبية وقرصها فقال نعم فرد عليه ابن حزم قائلاً: أتجوز أن يظن بالنبأ يقبل امرأة غيره متعمداً فقال الخصم معاذ الله من هذا ورجع إلى الحق من حينه وترك هذا الأصل الفاسد (2).

ومثل ما وقع بينه وبين أحد أئمتهم حول أصل من أصولهم وهو - أن علم الله هو غير الله وأنه لم يزل معه -، فقال له ابن حزم إذا كنتم تقولون هذا القول فلماذا تنكرون على النصارى قولهم إن الله ثالث ثلاثة، فرد عليه المناظر قائلاً ما أنكرنا على النصارى إلا اقتصارهم على الثلاثة فقط، ولم يجعلوا معه تعالى أكثر من ذلك فأمسك عنه ابن حزم لتصريحه بأن قولهم أدخل في الشرك من قول النصارى، ولمعارضته لقوله تعالى (قل هو الله أحد) [سورة الإخلاص آية 1] (3)، ومثل ما وقع بينه وبين أحد علمائهم حول -إلصاقهم بعض الصفات لله تعالى مما لم يسم نفسه بها -، كقولهم إن الله يكيده ويستهزئ ويمكر وينسى وهو خادعهم، فألزمه ابن حزم أن يسموا ربهم ماكرا وكيادا وخداعا وناسيا وساخرا، فإن قالوا إن هذه صفات ذم وإنما نصفه بصفات المدح لزمهم أمرين :-

(1) أنظر: الفصل، 3/158، 157، 145.

(2) نفس المصدر، 2/319.

(3) أنظر: الفصل، 1/393.

أحدهما: إما أن يطلقوا أن الله أخبر عن نفسه بصفات الدم ، وهذا كفر على حد قول ابن حزم .  
الثاني: أن يصفوا ربهم بكل صفة مدح ، وإن لم يأت بها نص ، وإلا فقد تناقضوا فيصفوه بأنه عاقل وشجاع وجلد وسخي (1).

ويتضح أثر ابن حزم في إقناعه بعض الأشاعرة في ترك أصولهم والعودة لمذهب أهل السنة والجماعة كما سبق ، فضلا عن اهتمام الكثيرين من الأندلسيين بمناظراته حيث كانوا يحرصون على حضورها وتدوينها ، وأخيرا تلاميذه الذين اهتموا بدراسة كتب شيخهم ودرسوها لتلاميذهم (2).

ولا شك أن موقف الحنابلة المتعنت من الأشاعرة عرف طريقه إلى الأندلس بحكم وجود بعض الحنابلة وإن كانوا قلة (3). فمنذ أن اتهم الإمام أحمد " ابن كلاب " (4) بالبدعة وأمر بهجره - وهو المؤسس الحقيقي للمذهب الأشعري - لم يزل الحنابلة مع الأشاعرة في معركة طويلة حتى في أيام دولة نظام الملك - التي استطال الأشاعرة فيها - وبعدها كان الحنابلة يخرجون من بغداد كل واعظ يخلط قصصه بشيء من مذهب الأشاعرة ولم يكن ابن

---

(1) نفس المصدر، 1/404، 405.

(2) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم 1 مجلد 1 ص 170؛ وأنظر : فهرسة ابن خير، 2/580؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء، 18/199.

3 عبد الباقي السيد : ابن حزم الظاهري ، ص 57.

4 هو عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان البصري صاحب التصانيف في الرد على المعتزلة ، وربما وافقهم . أخذ عنه الكلام داود بن علي الظاهري ، وقيل : إن الحارث المحاسبي أخذ علم النظر والجدل عنه أيضا ، وكان يلقب كلابا ؛ لأنه كان يجير الخصم إلى نفسه ببيانه وبلاغته . وأصحابه هم الكلابية ، لحق بعضهم بأبي الحسن الأشعري ، ولابن كلاب كتاب " الصفات " ، وكتاب " خلق الأفعال " ، وكتاب . الرد على المعتزلة . أنظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ، 11/174-176.

— الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط (92هـ/711م - 897هـ/1492م) —

القشيري إلاّ واحداً ممن تعرض لذلك وبسبب انتشار مذهبهم وإجماع علماء الدولة العباسية على محاربهته أصدر الخليفة القادر منشوراً عرف بـ " الاعتقاد القادري " أوضح فيه العقيدة الواجب على الأمة اعتقادها سنة 433هـ ، وقرىء هذا الاعتقاد بالديوان وحضر الشيخ أبو الحسن علي بن عمر القزويني ، فكتب خطه تحته قبل أن يكتب الفقهاء ، وكتب الفقهاء خطوطهم ، وفيه إنَّ هذا اعتقاد المسلمين ومن خالفه فقد فسق وكفر (1).

وتجدر الإشارة إلى أن عصر الموحدين رغم أنه شهد انتشاراً للأشعرية من قبل السلطة والتيار الرسمي الممثل لها من الفقهاء والقضاة فإن ثلثة من الفقهاء وجهوا انتقاداتهم للأشعرية كابن رشد وابن عربي الصوفي ، وهو ما أشرنا إليه بالفصل الثالث من هذه الدراسة .

---

1 ابن الجوزي : المنتظم ، تحقيق محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1412هـ/1992م ، 282-279/15. أحداث سنة : 433 ، 469 ، 475. وعن نص الاعتقاد القادري . أنظر : ملحق رقم (2) من ملاحق الكتاب .